مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 05 العدد:02- جوان 2021 ص129 / 150

تحليل الخطاب الشعبي: بين الثابت والمتحول في التراث بمنطقة الهضنة

The popular discourse analysis between the variable and the invariable in Elhodna region heritage

باية كاهية*

جامعة محمد بوضياف-لمسيلة

Baya.kahia@Univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: *2021/05/06*
تاريخ القبول: *2021/05/16*

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الثابت

الملخص:

إن غالبية المهتمين بمجال التراث الشعبي تحملهم الرغبة الجامحة ،والحب الصادق لأجل حفظه وتوثيقه من الضياع أو الزوال إذ كلهم غيرة عليه وخوف من فقدانه ، غير أن الأحاسيس من خوف ورغبة وحب وحدها لا تكفي للحفاظ عليه اذ يجب أن تتوافر على الكثير من الشروط والأسباب للبحث فيه أولا ثم دراسته والحفاظ عليه، ولعلنا في راهننا رغم بعض الجهود الأكاديمية والتشجيع على البحث

*المرسل المؤلف

- ✓ المتحول
- ✓ التراث الشعبي
- ✓ منطقة الحضنة

الجامعي في مجال الدراسات الشعبية نلاحظ عزوف الكثير من الطلبة والباحثين الجامعيين عن الاهتمام بمجال الدراسات الشعبية وعلى هذا الأساس ارتأيت البحث في هذا الموضوع القديم الجديد في الوقت نفسه ؛حيث إن مسألة الثابت والمتحول في التراث مسألة شائكة ولا يمكن الجزم بيقينيتها ودقتها وضبط نتيجتها، فلطالما تغنى الكثير من الدراسين والباحثين في المجال بتأثر التراث بكثير من المؤثرات كالزمان والمكان الكفيل بتغيير العمل بحكم هجرة المواد إلى مواطن جديدة غير مواطنها الأصلية وهذا من شأنه التأثير فيها ، والرواة المحترفون وغير المحترفين الذين يعملون على سرد وترديد الرواية الشفوية بحسب مآرب وأغراض خاصة ؛فالراوي المحترف يتصيد المناسبات والأوضاع والأوقات التي تروى فيها المادة التراثية بما يخدمه ماديا وعليه تجده يغير ويبدل كيف ما شاء ،والمشافهة أو الرواية الشفهية كعنصر أساسي قار في تعريف التراث عموما ،حيث أن المختصين في علم النفس يجزمون بأن انتقال الرواية من فم إلى فم يؤدي إلى إبداع رواية جديدة أو نص جديد غير الأول الأصلي، وهذا ما ينتج عنه التغيير والتحول في أي عمل مهما كانت صورته أو شكله أو ميدانه.

Article info

Received *06/05/2021*
Accepted *16/05./2021*

Keywords:
- ✓ *the invariable*

Abstract :

Most of those, who are interested in the field of popular heritage, have a strong desire and a true love towards maintaining and documenting it from loss. However, all these feelings aren't sufficient, since so many conditions have to be available for studying it for the sake of protecting it. Despite some academic efforts and fostering for the university research in the field of popular studies, many students and university

researchers still have no interest towards it. On this basis, I've addressed this ancient and new topic meanwhile. The issue of "the variable and the invariable in the heritage" is so difficult, and its certainty and accuracy can't be asserted, besides its results can't be arranged. Many researchers, in this field, adopt the idea that time and place affect the work, since the materials movement to new lands affect them. The proficient and no proficient people narrate the orally transmitted news, according to their objectives, and the proficient narrator chases the appropriate opportunities for narrating this heritage material, according to what serves him materially, so he changes whatever he wants. The orally transmitted news is a fixed element in the heritage general definition. Psychologists assert that the oral news movement can lead to the creativity, so that the transformation occurs on any work whatever its image, form, or field may be.

- ✓ *the variable,*
- ✓ *the popular heritage*
- ✓ *Elhodna region*

. مقدمة:

التراث الشعبي هو مجموع المعارف والمدركات التي تشمل كل المجالات سواء الفلكلورية من المأكل والملبس والكلام والبناء أو العمران وكل ما يتعلق بحياة الشعب المادية واللامادية والفكرية الموروثة والمكتسبة جيلا بعد جيل و:" .. التراث كما يؤكد الباحث "طارق زيادة "هو حضور الأصل أي الأب "الماضي، السلف" في الابن "الحاضر، الخلف" وله مفهومان :- الأول :يقتصر على الناحية المادية متمثلة في الكتب والمكتبات، والثاني :يجعله من الناحية المعنوية ،متمثلة في القيم التي تؤثر في الحاضر والسلوك الناتج عن تلك القيم" ،إن الاشكالية الأساسية التي يعالجها هذا الطرح تتمثل في حقيقة البحث في أصالة التراث أو تعرضه للمعاصرة ، أو بطريقة أخرى إن كان قد شمله التغيير والتبديل أو أنه بقي ثابتا شامخا متحديا كل ما يمكن أن يمسه أو يعترضه من متغيرات لا بد وأن تعصف بكل شيء ، في مجتمع هو كغيره من

المجتمعات التي لا يمكن أن تعيش بمنأى عن هذا التراث ، وهو مجتمع منطقة الحضنة الذي تزخر الحياة الشعبية فيه بزخم هائل من مظاهر الموروث الشعبي وفي شتى اهتماماته ومضامينه ومراميه.

التراث :

يقول محمد عابد الجابري في تعريفه للتراث: "التراث العربي كغيره من التراث أثر وتأثير بحضارات غيره من الأهم والشعوب قديما وحديثا ، وزاد في اخصابه تطور صلات التأثير والترجمة والتبادل المباشر بين تلك الحضارات وبين الحضارة العربية"[1] .

و المأثورات الشعبية ...مجموعة أشكال تعبيرية ، تعتمد اللغة أحيانا كما تتوسل اللغة والحركة الايماءة أحيانا أخرى لترسم بذلك لوحات فنية إبداعية تعبر عن تاريخ جماعي بصور ساذجة التركيب ،وبلغة بسيطة في شكلها ، عميقة ومركزة في محتواها ، تسعى جاهدة للتعبير عن عادات وتقاليد وطقوس الجماعة "[2]، هو إذا تاريخ جماعي يعتمد لغة سهلة مبسطة معبرة عن العادات والتقاليد وكل الطقوس الجماعية ،ومن تعريفاته العديدة والكثيرة أيضا أن تراث "أي أمة هو مجموع الخبرات التي أنجزتها أو اكتسبها عبر تاريخها الطويل في جميع مجالات الحياة المادية والروحية ،ومن ثمة فالتراث هو التاريخ والذاكرة الشخصية التي تلون أجيال الأمة الواحدة بألوانها فهو تراكم الخبرات والمعارف ولكنه اعتراف بالوجود اعتراف بشخصية لها وجودها التاريخي والنفسي ،وبكيانها وموقعها في العالم ،فنحن كثيرا ما نسمع ونقرأ أن أمة بلا تراث ،أمة بلا جذور بل هي أمة بلا مستقبل ، لأن الجذور هي التي تغذي شجرة الحياة لتعطي ثمارها وتشع بنورها على الإنسانية "[3]،فالتراث إذا هو ذلك المخزون الثقافي والموروث المادي أو غير المادي الذي خلفه الخلف لهذا السلف وهو ما يستعمله ويستغله الجيل الجديد في حياته الاعتيادية فيدخل في كل حياتهم ،فإما أن يحافظوا عليه ويتمسكوا به و يتوارثوه جيلا بعد جيل أو أنهم يستفيدون من الحياة الجديدة والمتغيرات التي تمس كل شيء فيتحول ويتبدل ،ومنه ما قد يكون فيه ما هو ثابت ومنه ما تحول وتغير وتأقلم مع المتغيرات الحديثة والجديدة ، فماذا نعني بالثابت و ما هو المتحول من التراث؟

الثابت والمتحول:

أو الأصالة والمعاصرة هي مفاهيم عدة وكثيرة لمصطلحات تصب جميعها حول التراث بأنواعه إن كان قد مسه تغيير أو تحويل أم إن كان قد بقي ثابتا محافظا على أسسه وقواعده

وكل محتوياته ، حيث "تبقى الأصالة والموروث الثقافي محل نقاش وجدال من خلال التعمق في مفهوم التراث وعلاقته بالتجديد ، فيعتبر هذا الأخير محاكاة للتراث في سياق معاصر حيث أن الأصالة هي أساس المعاصرة والتراث يمثل وسيلة للوصول إلى التحديث وتطويعه مع متطلبات الواقع، فلا يمكن للتراث أن يكون منفصلا عن الواقع الحي بل هو عنصر متحول ومتغير فهو ليس بمثابة عقائد نظرية ثابتة وحقائق دائمة فلعل هذا الطرح في علاقة الأصالة بالحداثة يمثل قراءة في محاولة اختيار ما يمكن له ملائمة حاجات العصر"[4] .

المفهوم الذي يحيلنا إليه هذا التعريف هو أنه يعتبر التراث محاكاة أو تقليد في سياق معاصر؛ إذ التجديد والتغيير حاصل لامحالة لأن التراث لا ينفصل على كل ما يحدث في الواقع المعيش وعليه فهو يواكب كل عصر هو متغير متحول لأنه ليس عقيدة ثابتة أو قانونا وحقيقة دائمة لذا فوجب تطويعه مع متطلبات ومقتضيات الحياة الجديدة.

إن المحافظة على طبيعة الهوية والتمسك بالتراث الذي يمثل "تراكمات ثقافية مشتركة داخل المجتمع الواحد فهو المرجعية الأساسية لكل عمل متصل بالحداثة ، حيث أن الاشكالية التي تطرح في سياق التراث ...لا تتمثل في تجديد التراث أو في عمل ابداعي مجرد تماما من أي مرجعية موروثة بل الأهم يكمن في الاستمرار والمحافظة على الهوية والثقافة الوطنية "[5] ، هذا الذي تحاول هذه الدراسة الوصول إليه أو إثباته عن طريق اعتماد منهج تعليلي مقارن حتى وإن كنا لا نزعم فيه السبق والتقدم لأن هذه القضية قديمة جدا وتناولتها الأقلام وتدارسها النقاد كثيرا وهي لاتزال كقضية مثارة على مستوى الدراسات الحداثية والتي أثار الجدل فيها المفكر والشاعر السوري اللبناني علي أحمد سعيد "المشهور ب" أدونيس".

الموضوع: لا شك في أن لكل أمة عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ،طقوسها وموروثاتها ؛والتي تمثل عصب تراثها أو ثقافتها الشعبية التي لا يمكن أن تتنصل منها أو تخرج عنها ف "الثقافة تلخص تجربة المجتمع ووعيه بذاته وبمحيطه "[6] ،و هذه الألوان المختلفة المتنوعة المشكلة أساسا من فنون شعبية شفاهية متوارثة هي روح الشعب وقلبه النابض الذي يبدع في طرح وتقديم معارف الشعب وحكمتهم و مأثوراتهم وكل موروثاتهم المتعددة الأوجه من :أدب متضمن للخطاب الشعري والنثري على تنوعه ،من حكم وأمثال وحكايات وأساطير أشعار وأزجال وأغان شعبية وابداعات فردية وجماعية تعود في الأساس لهذا الشعب وهذا المجتمع الذي عبرت عنه وسجلت

مآثره وأرّخت لمراحل عديدة من حياته المتنوعة المشاهد وثرية الابداع الثقافي والتاريخي والحضاري .

ولقد أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة أنه لا يمكن إطلاقا الاطمئنان إلى فكرة ثبات الثقافة المروية أو الشفاهية خاصة ما تعلق منها بالتراث اللامادي أو الفكري بصفة خاصة كالأدب شعره ونثره عموما، وأنها قد انتقلت عبر أجيال دون أن تعتريها تغييرات ، فسمة التغيير هي صفة أساسية للعناصر التي تتكون منها الثقافات ، والتغييرات التي تنتابها قد تكون بالحذف أو الزيادة أو النقصان كالتغيير مثلا في الجانب اللفظي أو المعنوي على السواء لكن النصوص أيا كان جنسها تحافظ على مضمونها الأساسي أو هيكلها العام ، ولقد عرف مفهوم التراث الشعبي تطورا دلاليا ، تبعا لمضمونه ،وخصائصه الوظيفية ، وتغيرت الكثير من خصائصه الشكلية و المضمونية تبعا لمعطيات وتطورات زمكانية حديثة أو جديدة على اعتبار أن الأعمال الأدبية الشعبية مثلا كالحكاية والشعر الشعبي والأغنية والمثل أصبحت تدون هذا إضافة إلى أن صاحبها أضحى يؤكد على شخصيته ونسبة العمل إليه من خلال التأكيد على اسمه في ثنايا العمل ففقد الكثير من الخصائص القديمة واستحوذ على ميزات من الزمن الجديد أكسبته ثوبا يكاد يكون مغايرا للأول "فغدا لا يحمل شكلا تعريفيا واحدا ، وفي المقابل حصل اتفاق بين الدارسين حول أشكاله وأنماطه الشعبية الأدبية منها وغير الأدبية ، التي توزعت على الأسطورة والحكاية والسير والملاحم والمثل والأغنية ، وغيرها من الأشكال والتعبيرات المختلفة "[7].

ويقصد بالثابت مجموع القيم والمبادئ الإيجابية المشكلة لشخصية وهوية المجتمع الجزائري ، التي تميزه عن باقي المجتمعات الإنسانية " والثابت هنا لا يخرج عن العقيدة الإسلامية المؤيدة بلغة خاصة ، وبوطن ذي ثوابت جغرافية وتاريخية وحضارية معينة وبالثورة التحريرية الكبرى "[8]، ولعل الكثير من الدارسين يؤكدون على ثبات التراث واستقراره في فترة ما قبل الاستعمار بالخصوص وما تلاها من السنوات الأولى للتعمير ، ثم بدأت رياح التغيير تعصف بها وبثوابت الأمة .

-الثابت في الخطاب الأدبي في منطقة الحضنة والمتحول فيه:

1-الثابت في الخطاب الشعري الشعبي:

انه لمن المتعارف عليه أن ثقافة مجتمع ما تعكس بصورة دقيقة حقيقة قدراته مثلما تعكس احتياجاته أيضا ، ولذلك فإن لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية أنماطه الثقافية

وقيمه الخاصة به ، والمتميزة عن غيرها من الثقافات الأخرى ،ولطالما كانت المعارف والفنون والآداب قاسما حضاريا مشتركا بين الشعوب ومصدرها الأساسي هو الشعب نفسه وقد أكد الباحث الأنثروبولوجي "هورسكوفيتس" بأنه:" لا توجد ثقافة حية تظل ثابتة ، فلا قلة الأفراد ولا العزلة ولا بساطة العتاد التكنولوجي يثير الثبات التام في حياة شعب "[9]، وعليه فهو يُقر بتغيير الثقافة وتحولها وعدم استقرارها وثباتها فالحياة التي تعيشها الثقافة هي التي تعطيها صفة التحول و اللااستقرار أو الثبات الدائم ولعلنا في كثير من التعريفات نجد بأن الشعر الشعبي والشعر عموما :" لا يتشكل بمعزل عن المادة الاجتماعية والثقافية والسياسية المتمثلة في الفرد والمجتمع ، كل قصيدة تحمل أمشاجا من نصوص لشعراء ماتوا وشعراء أحياء ، النص يجمع بين الحداثة والتراث ، فهو يشكل الواقع والتراث من خلال رؤية شعرية معينة تقوم على تجربة خاصة ، فالإبداع الفردي إنما هو نتيجة توظيف خاص لما هو عام اجتماعي وثقافي ، ومن ثم لا يمكن أن يقوم جديد من فراغ أو شيء من لا شيء فلولا يعاد الكلام لنفد كما يقال ولولا تمثل القديم شعرا ونثرا ما استقام نص حديث ، ولولا اتصال الماضي بالحاضر ما استمرت الحياة "[10].

ولما كان الأدب الشعبي الأقرب إلى الروح والوجدان يعبر عن وجدان الشعب وهواجسه وخلجاته ولواعج روحه ، فقد تغنى الشعراء به وبكل تلك الأحاسيس الخفية التي تأبى الأعراف والعادات والتقاليد الإفصاح عنها وترفض أن ترضى عن إظهارها للغير فلجأ حينها كل شاعر شعبي –على غرار موقف صاحبه الشاعر الفصيح –إن صح التعبير– إلى اعتماد الكتابة ملاذا ومنفذا آمنا ومتنفسا يريح به النفس الجريحة المتألمة العاتبة على الواقع وعلى الوضع عموما ، والشاعر الشعبي كغيره في منطقة الحضنة لطالما سار على خطى سابقيه ولعل الثابت الذي لم يتحول فيه هو اللهجة المعتمدة والموضوعات المطروقة ، فعلى مستوى المضمون والشكل بقي ثابتا شامخا مستقرا حتى أن الشاعر فيه اختار لنفسه الطريقة ذاتها في العرض وفي التقديم وطريقته حتى على مستوى الهندام حاول دائما العودة إلى ماضيه من حيث اعتماده اللباس التقليدي "كالقندورة" و "البرنوس "عادة أو "القشابية "مع إرفاق الأداء أحيانا بآلة موسيقية تقليدية "كالناي " أو" البندير "مثلا.

وقد عُد الخطاب الشعري الشعبي من مقومات الشخصية الجزائرية عموما والحضنية بصفة خاصة ؛ "ولعل قصائد الملحون تشكل جزءا هاما وكبيرا من هذا الأدب الذّي يعد أحد

ملامح تاريخنا ، وأحد الأجزاء العامة منه ، فهو يشكل وجها من وجوه الحياة التّي عشناها ونعيش جزئياتها ، ليظل شعبنا ممتلكا لمقومات وجوده ."[11] فالشعر للأدب الشعبي معين لا ينضب على اعتبار كونه مكونا أساسيا من مكونات الثابت والانتماء الثقافي والحضاري لكل شعب.

يقول الشاعر" عبد القادر العطوي "[12]:

اَتْوَحْشْتْ أَوْلاَدْ نَايْلْ ذَّا الخَطْرَة الله لاَ تَرَّاسْ نَغـــــــدَ اَنَّا وِيَّاه
نسْرِيْ عَلْ لَقْجَارْ وانْشُقْ البُكْرَة نَتْوكَلْ عَنْ خَالْقِي عْظِيْمْ الجَاهْ
الْبَرْلِي فِيهْ تَطْيَابْ العَشْرَة تْوَحْشْنَا ذْوْكْ المْرَاسَمْ يَا حَسْرَاهْ
مَاحْلاَهَا قَعْدَاتْ فِي البِيْتْ الحَمْرَاء ذِّيْكْ القَعْدَة تْزِيْدْ لَلْخَاطَرْ تَنْزَاهْ
فَلجَة مَرْقُوْمِيْنْ رَقْبَةَ مَنْ ظَهْرَة وَالكَانُوْنْ رَوَاقْ مَنْ قَبْلُه غَطَاه

يسعد الشاعر في هذه الأبيات بوصف الحياة الجميلة التي كان يعيشها في جو الصحراء والبادية الحضنية التي سحرته بطبيعتها وأحب العيش في كل شبر فيها ،وإن كانت مشاعر مثل هذه لا تتغير فارتباطه بالمكان وتجذره فيه وعمق الصلة بينهما جعله يبرز في أشعاره ، مكان ولد وترعرع وشب فيه لابد أن يحمله الحنين للتعبير عنه والرغبة الدائمة في العودة إليه ، وأحاسيس لا تختلف ما طال بها الزمن ، تلك الصورة النمطية التي في أذهاننا حول الصحراء أو البادية التي نعشقها لا تتغير ويأخذنا إليها الحنين دائما و نرنوا دائما للاستمتاع بذلك الزمن الجميل الذي لا يمكن أن يعاد ، هي مشاعر لا تتغير ولا تتبدل بل تزيد رغبتنا لمعايشتها من جديد ، فارتباطنا النفسي والروحي والتاريخي يجعلنا في ارتباط ثابت به ودائم الحديث عنه ، لأنه بكل بساطة يعيش في دواخلنا ومستقر في ذواتنا .

و حاول الشعراء الإبقاء على أصالة طابعهم الشعري والثبات على موضوعاته ومعانيه من خلال التمسك بالتراث الشعبي الذي يظهر جليا في العديد من الأبيات بدءا من قوله "توحشت ولاد نايل" التي أعادت للشاعر الرغبة الجامحة في زيارتها والتمتع بكل مظاهر الحياة البدوية والشعبية فيها " سحرتني بجمالها لي الرب عطاه ".

إن وجود تلك المؤثرات الثقافية المختلفة التي توارثها الشاعر عن أجداده ممثلة في العادات والتقاليد ، وكل تلك الطبائع الشعبية التي زرعها فيه الأوائل من الرعيل الأول ، وهو حينما يتوجه للشعر للتعبير عنها وعن خلجاته ،فإنما هو تعبير عن واقع اجتماعي ونفسي

يكشف عن عقلية وفكر نشأ في حضن الثقافة المحلية والتي مَثّلَهَا صاحبها الشاعر المتشبث بماضيه بألفاظ وعبارات سوسيو ثقافية عاكسا كل تلك التمثلات الفردية والجماعية للواقع المعيش ومتطلعا لمستقبل لا تغيب فيه هذه النظرة الجميلة للحياة .

إن مثل هذه الخطابات الشعرية عند الشاعر الشعبي ما هي سوى وعاء من الصور الرمزية التي تدل على الأشياء الموجودة في عالم الشاعر المحيط به والتي تدل عليها اختياراته اللفظية من خلال إعطائها المعنى الخفي حينا والمباشر أحيانا سعيا إلى حضور الأشياء المرموز إليها بذاتها في المخيال الشعبي للمتلقي ، والمتصفح لمثل هذه الخطابات أيضا يلحظ جليا ما تحمله من تراث أسهم في صقل وتشكيل وتكوين الشخصية الحديثة والحالية للشاعر ، هذا التراث بمختلف ما يحمله من أفكار ومخلفات فكرية وثوابت نفسية وتغيرات تاريخية ، لأن الشاعر كائن حي وفاعل يؤثر ويتأثر بالواقع ، ويطمح إلى تحقيق السعادة التي فقدها في واقعه وعايشه في قديمه ، فهذه الحياة التي تربط الشخص بماضيه وتميزه عن غيره فيتعلق بماضيه من عادات وتقاليد وأعراف توارثها عن أجداده وتمسك بها حتى أصبحت جزءا ضروريا في حياته.

على هذا فإن الثابت في الخطاب الشعري مبدئيا هو اختيار هذا النوع من الخطاب الشعبي أولا وقبل أي نوع آخر خاصة في ظل التطور الأدبي الذي تشهده الساحة الأدبية عموما والشعرية بصفة خاصة ،ثم شكله وبناء القصيدة العمودية بأوزانها وإيقاعاتها وتفعيلاتها وقوافيها ،وحافظت على ثبات موضوعاتها المختلفة كالوصف الغزل الرثاء المدح وغيرها من الأغراض الشعرية المتوارثة ،هذا إضافة إلى الألفاظ والعبارات التقليدية التي يجتهد الشاعر في اختيارها حتى تنتمي إلى الغرض الشعبي الذي بني عليه النص من الوهلة الأولى ، حيث يجد الشعراء صعوبة في التوفيق بين الغرض في حد ذاته كشعر شعبي وبين الألفاظ المستوحاة من الحياة الشعبية المستقاة عادة من الحياة التقليدية البدوية ، فيعتمد على اللغة أو اللهجة العامية حتى وإن كان ضليعا بالعربية وقواعدها كما بقي محافظا ثابتا على استعماله للخرافات والأساطير والأمثال الشعبية وكثير من الأجناس الشعبية على تنوع الأشكال الشعرية الشعبية.

لا شك في أن النص أو الخطاب الشعري بصفة خاصة لا يفتأ أن ينطوي على معان مائزة من حيث كونه ينطوي على مفاهيم ضمنية في الخطاب ومن جهة كونه أيضا هندسة وبناء للمعنى والمبنى على السواء في شكل منسجم منسق ، يضمن للنص أو الخطاب الشعري الشعبي جماليته وحياته وتجدده أيضا.

يقول الشاعر البوسعادي :أحمد عامر أم هاني[13] :

في سبيل الله حاجة ما تصعب زادت عن رسولنا خير العباد
واغفر يا إله يا مولانا يا رب نجينا في لاخرة يوم الميعاد
يوم الحشر كبير والعرق إ كبب والمجرم هو امكتف في لصفاد
أحمد عامر أم هاني ها كتاب حب الرسول جار عني يا لسياد
بعت الدنيا أو فانيها هو يسلب وشريت به حب النبي درت فالزار

إن صورة الثابت تبدو واضحة جلية في هذا القصيد ، حيث شكل أهم خاصية في الخطاب الشعري لشعراء الحضنة التي استقوها من مضامين ومعاني الدين الإسلامي وتعاليمه خاصة وأن تعليمهم اقتصر في أغلب الأحيان على الدراسة في المساجد والكتاتيب، فقد توضحت روح الإسلام أصيلة ودعم القيم والمبادئ : في سبيل الله حاجة ما تصعب "لقد باع الشاعر دنياه في سبيل مرضاة الله ورسوله ، وهذه غاية كل مؤمن صادق تشبع بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، فثبتت هذه القناعة في المعاني والأفكار الواردة في قصائد الشعراء و أعمالهم إن بعث " واعتزاز كبير بحب الوطن وامتزاج ذلك في وحدة متكاملة ، هي التي يؤمن بها الشاعر الشعبي امتدادا لرسالة الإسلام ، التي حققها المسلمون الأوائل مما يضفي عليها قدسية في سبيل الحرية والكرامة ، ويحفز الإنسان للإصرار على النصر"[14]،كيف لا وهي روح إسلامية أصيلة.

ولعل من الثوابت أيضا التي رسخت في الخطاب الشعري الحضني ولازمته دون تغيير أو تبديل هي تعزيزه بالروح الوطنية والقومية التي كثيرا ما أَثْرَتْ موضوعات الشعراء و حفلت بها قصائدهم وخطاباتهم

يقول الشاعر مفتاح البشير[15] مشيدا بانتمائه إلى منطقة الحضنة واصفا إياها بأجمل التواصيف:

الحضنة في جنوبها موطن فنان واحة بالنسيم حسنها غنى
ذا قول" البشير" والبشير أمان و نقمتوا مفتاح معلم مهنة

إن الروح القومية والانتماء العربي والعقيدة الإسلامية وحب الأوطان واللغة كانت من أبرز وأهم المعالم الثابتة في الخطاب الشعري الحضني ، كما وسمت موضوعات الشعر وأغراضه ، والتي ظلت ثابتة ولم تتأثر كثيرا بمتغيرات الشعر الحديث والتي تجلت بوضوح في ثباتها على الطابع البدوي ، كوصف البيئة الصحراوية والخيمة وما فيها طريقة العيش

والتعايش فيها ، وكذلك وصف بعض الحيوانات كالغزال والناقة وغيرها وهناك أيضا المدح والرثاء والتي تأثر فيها الشعراء بالشعر التقليدي الكلاسيكي وحتى بنائه وشكله بثوابت القصيدة العربية الكلاسيكية والتقليدية ، فما يخلد ويثبت النص عبر الزمان والمكان تلك اللمسات والملامح الفنية ، وما تكشفه أسرار النص بعد كل قراءة والتي تبقى أسيرة لغة النص ، وهي اللغة التي تبرز القدرة على كيفية تعامل الشاعر معها ، ومدى بعده عن السائد والمتعارف عليه شعريا .

ومن المؤكد الذي يتفق عليه العام والخاص أن الثابت الدائم الذي لا يتغير في أي عمل مهما كان نوعه أو جنسه أو مصدره هو الناحية الجمالية فيه فجمال النص هو الذي يجعل الجميع يتفقون على حبه والاستمتاع به فالإحساس بالجمال الفني يبقى ثابتا ومتفقا عليه رغم الاختلاف في درجاته .

وفي أوصاف المنطقة يقول الشاعر لعزازي سمير[16] :

يا سايلني عا لمسيلة جيب الواح
وأهل الندهة فالخصايل سجالة
يا وطن البارود والخيل الكساح
ووليداتك قاع راهم خيالة

إلى أن يقول:

حضنتنا تهوى البدوي ولفلاح
للتاريخ بقات عنوان أصالة
والفنطازي بين خيمتنا طراح
حس اقدموا فرفرت بيه أوعاله
أرض الحضنة ناسها فالود صحاح
والولية برهانهم عاد قبالة

1-أ: المتحول في الخطاب الشعري الشعبي:

من روائع الشعر العربي القديم قول الشاعر[17]:

والدَّهْرُ لاَ يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ أَعَزُّ مُمنَّعُ

بمعنى أن الزمن متغير ولا شيء يبقى على حاله وقديما قال "هرقيطس" أو هيراقليتوس "الذي كان يصر على أن الوجود في تغير دائم على اعتباره الجوهر الأساسي في الكون :" لا يخطو رجل في نفس النهر مرتين أبدا"[18] أو لا يستطيع المرء أن يسبح في النهر مرتين على اعتبار أن الماء متجدد متغير لا يبقى ثابت ، وهو حال الكثير من المتغيرات في حياة الإنسان ، ولأننا تحدثنا عن أهم ثوابت الشعر الشعبي ، فمهما كان ثبات واستقرار الأمور يبقى الحال منوط بالنسبية ؛فمن المؤكد أنه قد دخلت عليه تغييرات مست الجانب الشكلي والمحتوى على السواء ، فمن ناحية المتحولات المضمونية لا شك في أن حياة الناس قد تغيرت ومظاهرها وطبيعة الحياة والعلاقات جلها تغيرت ، فكان لزاما أن تتغير معه بعض مضامين الشعر من حيث إنها رفدت من الحياة الجديدة السهلة وغرفت من مظاهر التطور التكنولوجي فأضحت موضوعاتها تعالج قضايا الساعة ،ظروف سياسية وواقع معيشي مر وصعب ،حروب وصراعات مستجدة مغايرة طغت فيها الماديات عن كل شيء ، ولأن الشاعر ابن بيئته فقد راح يعبر عن كل جديد عن كل راهن أتعبه وأثقل كاهله ، وأصبحت النصوص تدوَن على غير عادتها وتوثق بأسماء أصحابها حيث أصبح الشاعر الشعبي يصم قصائده في النهاية باسمه واسم والده وعرشه أو أصله وتاريخ كتابة قصيدته ثم المكان الذي أنتجت فيه وهذا مالم يكن معمول به من قبل أو بمعنى أصح لم يكن شائعا ، يقول الشاعر بوضياف تناح ذاكرا اسمه ولقبه وعرشه[19]:

البشير بوضياف اسم مسطور حرف التاء والنون و الحاء عنوانه
عين الملح الدايرة مركز مشهور المزياني في نسبتوا حاب أوزانو
في التسعة والعشرين آخر الشهور في يوم المرحوم فارق جيرانوا

ويقول عبد القادر بن النوي[20] أيضا :

الله لا فصيح بكلامو يجهر يحكيلي تاريخ من ثورة لحرار
يحكيلي ويعيدلي قصة وخبر يروي عطش الشوق ويبرد لجمار
يقرالي كتاب مشروح مفسر يطفالي مشعال في ذاتي زمهار

ولم تقتصر المتغيرات على كتابة التاريخ والاسم والعرش وإنما تخطته إلى عناصر أخرى فقد حاول الشعراء التطوير في أعمالهم والتطوير تنوير وتطويع للعمود الشعري حيث استفاد كثير الشعراء من ألون شعرية رائدة كالأراجيز والموشحات هذه الأنواع التي ظهرت في العصر الأندلسي تجديدا للشعر العربي القديم والتي لم تكن معروفة قبلا فأضحت في المنطقة شعرا

ملحونا وشعرا عاميا مختلف في الشكل والموضوع ،وحتى من الشعر الحديث في بناء نصوص جديدة مواكبة للتطورات الحاصلة على مستوى الفكر والعقل والتقنيات ، فإذا تغنى الشعر القديم بالوقوف على الأطلال كثابت من الثوابت التي لحقها التغيير في العصر العباسي على يد ثلة من الشعراء الرواد وعلى رأسهم أبو نواس ، فقد تغنى الشعر الحديث ولاسيما الشعر الشعبي منه بحب الانتماء للعرش للقبيلة للمدينة وللوطن وللأرض أو الأمة عموما وهي أنماط تطورت شيئا فشيئا وتحولت ولونت قصائد الشعراء الشعبيين خاصة في المناسبات الوطنية الحديثة كعيد الاستقلال أو الحرية وغيرها من المناسبات الدينية والوطنية .

لقد طال التغيير الكثير من الأمور حتى راح خطاب الشعر الشعبي في المنطقة يفاضل في موضوعاته بين ما هو قديم وما هو حديث ،وراح الشعراء يتنافسون في وضع قصائد يتفاخرون بها بالزمن الجميل وكل ما يحويه وما يتضمنه ، وقارنوه بهذا الزمن الذي لم يعد يشبه في شيء ما عايشوه قديما، وعموما مادام الزمن لا يتوقف ومادامت الحياة متواصلة في تغير مستمر وعجلة التطور تسير بسرعة فائقة ومجنونة تكاد تجرف كل ما تلاقيه في طريقها فلابد أن يستمر الشعراء في الإبداع مع كل متغير ومع كل جديد وحديث ، وهو فعلا ما عبرت عنه الحداثة وما بعدها .

3-الثابت في خطاب الحكاية الشعبية بمنطقة الحضنة:

"المحاجية" هي اللفظة التي تطلق على الحكاية الشعبية في منطقة الحضنة ، ولعلها أُخذت في الأساس من الأصل "حجأ ...وحجيء بالأمر فرح به ، وحجأت به : فرحت به ، وحجئ بالشيء وحجأ حجأً تمسك به ولزمه "[21].

وقد أفصح هذا المفهوم اللغوي الذي من أجله اختار أهل الحضنة هذا المصطلح على أنه يعني الفرح بالشيء أي التسلية والترفيه عن النفس ، وكانت هذه من بين أهم وظائف الحكاية الشعبية وهي أنها وضعت للتسلية والترفيه من جهة ومن جهة ثانية كونها أكثر الأجناس الأدبية تعبيرا عن واقعه اليومي من خلال موضوعاتها الاجتماعية والسياسية والنفسية وحتى العقدية ،كما مثّلت الحكاية أدب الشعب بحق وتبناها أكثر من غيرها " لأنها طريقة أنجع للتنفيس عن خلجاته ...وهي في النهاية وسيلة للتسلية ونسيان آلامهم ، تخفيفا من حدة الضغوط التي عانت منها طبقات الشعب الكادحة "[22].

وقد تناولت الكثير من الدراسات الحكاية الشعبية الجزائرية عموما وحاولت معالجتها من وجهات متعددة ولذلك نحاول في هذا العنصر الحديث عن مسألة الثابت التي عالجتها هذه الدراسات .

فقد قدمت الباحثة "روزلين ليلى قريش " دراساتها وأبحاثها حول الحكايات الشعبية والسيرة الهلالية في الجزائر فكانت دراستها الميدانية الموسومة "القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي "[23] ،من أهم الأبحاث التي تعرضت فيها إلى تأثير البيئة العربية على الواقع الجزائري حيث راحت الباحثة تبحث عن الأصول الشعبية من أجل إبراز التأصل والتجذر في التاريخ العربي وهذا ما يشكل نوعا من الثبات المنتشر والمستمر ، ثم أنه توجد دراسات أخرى كتلك التي قدمها الباحث "عبد الحميد بورايو " في عمله الموسوم : القصص الشعبي في منطقة بسكرة "[24]، وقدم أيضا "الأدب الشعبي الجزائري "[25]، كما قدمت الباحثة "ثريا التيجاني"[26]دراسة عن الجنوب الجزائري وثَّقت دراستها الاجتماعية للقصص الشعبي في منطقة الجنوب وعنونتها :دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري وادي سوف نموذجا ، وتوالت الدراسات المشابهة في ذات الصدد في مناطق مختلفة من الوطن وكانت مجملها دراسات أكاديمية مقدمة لنيل شهادة الماجيستير أو الدكتوراه وتحولت بعد طباعتها لدراسات ومؤلفات في الحكاية الشعبية ، فجاءت أطروحة "عزي بوخالفة "عن الحكاية الشعبية الجزائرية وهي دراسة ميدانية في مدينة المسيلة ،وقد جمع من خلالها أكثر من مائة وخمسين حكاية بأنماطها وأصنافها المختلفة والتي عد تداول التراث فيها واحدا على اعتبار أننا " نتداول موروثا ثقافيا واحدا على الرغم من تعدد أنماطه وأشكاله وبخاصة عندما نلغي خصوصية المنطقة التي تعرفها أكثر من غيرها ، وإلغاء الخصوصية أو المحلية لا يلغي التكامل ، ولكنه من جهة أخرى ، يعني التنوع ولا يعني التصادم..."[27] .

بمعنى أنه يوجد تقاطع بَيّنٌ وتشابك بين الأنواع والأنماط التراثية سواء في الوطن الواحد أو حتى خارجه على المستوى القومي العربي أو حتى الانساني ،وكما هو متوقع فقد حافظت الحكاية الشعبية على كثير من الثوابت فهي من جهة حافظت على النسق العائلي الذي يجمع العائلة الكبرى بين الأجداد و الآباء والأبناء والأحفاد ،كما حافظت على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وعبرت عن وقائع اجتماعية وعائلية ، ودللت على نسق يكاد يكون موحدا في البنية الهندسية للتعمير والبناء في المنطقة ،ولأن المنطقة ذات طابعي فلاحي فقد أبرزت عن

جوانب كثيرة في هذا المضمار فروت الجدات طرائق الفلاحة و الزراعة وكيفية التعامل مع مواسم الحصاد والزرع ،والتويزة والوزيعة كما تناولت دور الحيوانات الأليفة وكيفية استغلالها واستعمالها في حياتهم الاعتيادية اليومية كالخيل والحمار، والكلاب ، والمواشي وحتى الدجاج الذي يقتاتون ويستفيدون من البيض الذي ينتجه ، والحليب الذي تدره الأبقار أو العنزات وكثير من مظاهر الحياة الطبيعية التقليدية التي لاتزال كثير العائلات تحياها .

كما تطرقت الحكاية الشعبية المحلية لموضوعات الواقع المعيش كعلاقة الشخصيات أيا كان نوعها " الأمومة ، الأخوة ، الصداقة ، زوجة الأب أو الأخ "بعضها ببعض وهذا الذي أكد عليه سابقا الباحث والدارس الروسي ، " فلاديمير بروب "في كتابه مورفولوجية الحكاية الخرافية[28] وهي أيضا التي تبقى ثابتة في كل الحكايات فبعدما درس مائة حكاية عجيبة روسية ورصد إحدى وثلاثين وظيفة وسبع شخصيات من حيث كونه قد درس الوظائف الثابتة في علاقتها بالعوامل أو الفواعل الأساسية .فنحن نجد في خطاب الحكايات الشعبية المحلية قيم وأخلاق تحلى بها الناس وتعاملوا بها في حياتهم اليومية ومنها مثلا حكاية " الجود"[29] وهي من الحكايات المثلية والتي أساس انطلاقها مثل شعبي مفاده :"هل الجود بالموجود ولا عادة من الجدود"، فهي تحدد قيم الضيافة الكرم إضافة إلى طباع الناس وتركيبة الشخصيات .، هنالك عديد الحكايات التي تجسد أبعادا واقعية وتاريخية فهي حتى وإن دخل عليها الخيال الشعبي وهو من أهم ميزاتها وخصائصها غير أن الحقيقة تبقى لتمثل جانبا ثابتا معيشا فيها ؛ومنها من باب التمثيل لا من باب الحصر حكاية " لقرع بوكريشة "[30] ،الحكاية تصور رحلة بطل مغامر أو البطل الملحمي كما يفضل البعض تسميته مثل الباحث " عبد الحميد بورايو " أو الباحثة " نبيلة إبراهيم " أو غيرهما ، وحكاية " بقرة اليتامى " هذه الحكاية التي نشأ على أحداثها وسرد روايتها كل طفل حتى أصبحت من ثوابت الطفولة مثلها مثل حكاية " عزة ومعزوزة " أو حكاية " الثعلب والغراب وقطعة الجبن "أو حكاية نجيمة خضار أو عشبة خضار " أو " حكاية ودعة جناية سبعة "،" خطاف العرايس" وجميع هذه الحكايات قد تنبع أحيانا من معتقدات سائدة محلية و مناسباتية أو غيرها كثير اعتاد الكبار على ترديدها للصغار في مرحلة الطفولة ، ولاتزال الجدات ترويها حديثا حين انقطاع التيار الكهربائي فتجتمع العائلة حول المدفأة وتبدأ السرد والقص في جو من الإعجاب والانبهار حينا والخوف والكره حينا آخر.

ومثلما رسخت الكثير من الثوابت في الحكاية فقد حافظت أيضا على عدد من الشخصيات التي طبعت القصص الشعبي فلا أحد ينكر أبدا أدوار "جحا" ونوادره ، أو "حديدوان " ومغامراته مع الغولة ، أو شخصيات " الأغوال ، والحيوانات المفترسة ،كا اللفعة أم سبع روؤوس ، " أو " السبع" و" الذيب" أو الثعلب" هي شخوص وحيوانات رافقت القص وبقيت تلازمه حتى وإن تغيرت الظروف أو الملابسات أو حتى الأحداث والأفعال :" فالحكاية غالبا ما تعزو أفعالا واحدة لشخصيات مختلفة ، وهذا يمكننا من دراسة الحكاية حسب وظائف الشخصيات الدراماتيكية "[31]، وهذا ما يؤكد فكرة الثابت ، " فالثوابت التي تشكل العناصر الأساسية في الحكي هي الوظائف التي يقوم بها الأبطال "[32]، أي أفعالهم وأعمالهم ومغامراتهم البطولية هي التي رسخت في الأذهان على اعتبار أن تحقيق البطولة يقتضي فعل والعمل وبالتالي تحقيق النجاح والانتصار وتقويم الإساءة والتغلب على الشر ؛وهناك ميزات وخصائص أخرى بقيت ثابتة كالمكان الذي يبقى مستترا لكي يكون صالحا لكل زمان و مكان مثله مثل الزمان فهاذان العنصران يرتقيان فوق عاملي الزمان والمكان لكي يحافظان على الجدة نفسها والقبول والترحيب من كل مستمع فيعتقد كل فرد أنها منه وله ، فاستهلال الحكاية أو البداية الافتتاحية أو الاستهلالية يبقى ذاته دائما حتى وان تغيرت الصياغة واللازمة التي ترافقها تبحث دائما عن نصوص جديدة تلامسها : "حاجتيك ما جيتك" أ و " كان يا مكان في قديم الزمان "أو " يا سادة يا مادة واهدينا لطريق الربح والسعادة ، على ستوت أم البهوت ، لا يرزقها نهار تعيش ولا يرحمها نهار تموت ، ستوت اتسبح و اتنبح واطّيّر ضروس الكلب لا عاد ينبح ، الطرشة أتجيب الخبر مين كان ، والعمية اتخيط الكتّان ، و العايبة أتنّط الكيفان "أو قولهم أيضا في الافتتاح :كان يا ما كان يا سامعين الكلام وحّدوا الله لا إله إلا الله ، قالك بكري كان وحد السلطان والسلطان غير ربي ، كان كذبت أنا يغفر لي ربي ...وكان كذب الشيطان عليه لعنة الله..."، والمتتبع للهندسة المفتاحية يلاحظ تقنية ذكية لعتبات الولوج إلى النص المروي أيا كان نوعه وجنسه ولا سيما خطاب الحكاية الشعبية منه يقول ياسين النصير :"للاستهلال وظيفتان أساسيتان هما :

الأول جلب انتباه السامع أو المشاهد أو القارئ وشده إلى الموضوع لأنه بضياع انتباهه تضيع الغاية وفي الخطابة : الغرض من الإصابة بالسامع هو أن نجعله يحسن الاستعداد نحويا أو نثير حفيظته ، وأحيانا لجلب انتباهه ،

أما الثانية : فهي التلميح بأيسر القول عما يحتويه النص "[33]، وذلك حتى تولجنا عالم الكلمات المراد التعبير عنها ، عن طريق حنكة الراوي المستفيد من الأوتار التاريخية ، ليبعث بها في طيات رسالته الروائية التي لا تستثني الروح الشعبية ، وإنما تعيش من ستار العصور والمزج بين أعاجيبها في تركيب ثنائي المنظور ، بجمعه أفكارا شعبية عريقة الجذور ، عميقة الرؤيا ، مشهورة السمعة ، إذ لما نسمع " زعموا أن " تذهب أذهاننا مباشرة إلى كليلة ودمنة والتجول مع بيدبا في عالم الحيوان المكتسي بحلل إنسانية " الذكاء، الكذب ، الصدق ،الأمانة ...،المقدم بطريقة فلسفية عجيبة ، والباسط قوننة وسياسة غريبة للمجتمع ، لأن الفاتحة النصية هي أول لقاء مادي محسوس يتم بين القارئ والنص"[34]، ومجمل هذه الاستهلالات توضح الخلفية الدينية لصاحبها حتى تطمأن وتهيأ السامع لما سيأتي ، ومن خلالها أيضا يستند الراوي إلى مرجعية دينية تجعله رسينا هادئا من جهة وتمنحه ثقة المتلقي من جهة ثانية.

وحتى خواتيم ونهايات الحكاية الشعبية التي تعد ثاني مفصل رئيسي ينتهي إليه جسم الحكاية وهندستها النصية ثابتة بحيث تنتهي بعبارات ختامية حكمية أو تقدم فيها عبرة أو نصيحة مثلا :هوما خذاو باطن ديس واحنا كلينا قصعة رفيس ، أو " حكايتنا دخلت الغابة وهذا العام يجينا صابا " دخلت حكايتنا الواد وحكايتنا الواد و نحكيوها لأولاد الأجواد"، أو قولهم أيضا في نهاية كل حكاية :"حنا خذينا الطريق الطريق أدينا بُكْرة وعَوْدْ، وهوما أدّاو بعْرة وعُوْدْ"[35]، أو يقولون أيضا :"تيس تيس حنّا دّينا العودة والتلّيس ، وهوما ادّاو عودة بليس "...ورغم الاختلاف في التراكيب التي تنتهي بها وإليها الحكاية إلا أن الثابت والمتفق عليه هو ضرورة الختم والوقف على عبارة تبين ذلك وتشهد عليه ،ومن ثوابتها دائما روايتها شفاها بين جموع الناس باللغة العامية التي درجت الجماعة على التعامل بها .

إن معظم التعريفات رغم تباينها ومعظم الصفات التي تحلت بها الحكاية كجنس من الأدب الشعبي عموما تجمع على أنها :"تتحدد في محور دلالي تعريفي ثابت ،وهو أن الأدب الشعبي هو ذلك الأدب الذي أنتجه فرد بعينه ثم ذاب في ذاتية الجماعة التي ينتمي إليها مصورا همومها وآلامها في قالب شعبي جماعي يتماشى ونظرتها ومستواها الفكري والثقافي اللغوي وموقفها الإيديولوجي إزاء المجتمع ."[36]

وحتى الوقت أو الزمن الذي تروى فيه الحكاية الشعبية فقد لازم الفترة المسائية أو الليلية وهذا للاعتقاد السائد بحدوث مكروه " الصلع مثلا" إذا ما رويت الحكاية نهارا ،كما أن

الدارج فيها أن تعتمد ثنائية الإرسال والتلقي الراوي القاص والمستمع فتكون ميزة المشافهة التي أعطتها هذا الكيان وهذه الكينونة الثابتة في مجمل الأوقات .

إن التقاطع والتشابه الكبير بين الأحداث في مجمل الحكايات ونقاط التشابه بينها يطرح فكرة ضرورية مفادها فلسفة التأصيل للشيء فطرحه لفكرة " الأصل الواحد والمنبع الواحد ، ثم الانتشار من مكان إلى مكان يضيف إليها البعض ويحذف منها البعض ، ولكن يظل الجوهر واحدا والأساس ثابتا "[37].

4-أ المتحول المتغير في خطاب الحكاية الشعبية الحضنية :

لاشك في أن خطاب الحكاية الشعبية في منطقة القص " الحضنة" في رحلته الطويلة قد فقد الكثير من خصائصه المضمونية والشكلية ،ذلك أنه في البدأ استسلم للبساطة وأحيانا السذاجة وقوة الإيمان والتصديق بقدرته على تحقيق اللامعقول و اللامقبول ، في البدايات تبنته الجماهير واحتوته فملأته بكل ما عايشته الأسرة من صراعات نفسية واجتماعية وسياسية وإيديولوجية، راهنت على واقع مزجته قاصدة أو غير آبهة بحقيقته المطلقة في مقابل اعتماده للتسلية والترفيه في سهرات الشتاء البارد،احتضنته الجدات والأمهات بحنانهن غير متكئات على وسائد الريش ولا أفرشة الحرير والديباج والاستبرق الذي ارتاحت شهرزاد وطفقت تسحر خيال شهريار بأحسن ما جادت به معارفها و اطلاعاتها وفلسفتها في العلاج ، إنها الجدّة الحضنية التي تشققت أصابع يديها من جمع الحطب لموقد النار الذي جالسته لساعات وهي تحضر أرغفة الخبز الطازج الساخن ، وتقوص ظهرها وهي تحمل الرضيع منحنية تحلب المواشي وتطعم الدجاج وتنظف روث البغال والحمير ، الجدة التي تعبق منها رائحة الحياة رائحة الأرض رائحة العمق بعيدا عن أي مظهر من مظاهر التحضر والتقدم ، لاتزال الكثير من المداشر المسيلية تجتمع حول ذاك الموقد الذي جمعت حطبه الجدة صباحا من الجبل ’ولا زال الأطفال يلحون ويتوسلون لهن بكل عزيز علها ترضى عليهم وتقص عليهم قصة " السابعة صغرونة " أو" عشبة خضار "أو " نجمة خضار"، أو الجازية وذياب الهلالي أو "حب حب رمان أكبدي "تذكرهم ببقرة اليتامى التي يحفظونها عن ظهر قلب ، أمسيات للفرح وللسعادة لا تعوض ولا تتكرر وساعات للارتقاء للسفر للرحلة لم ولن تُنسى، غير أن الحاضر بمزاجه المتقلب السريع يأبى أن يسمح في وقته الثمين لمنح السعادة المتأصلة بعيدا عن تفرده بماديات الحياة وشكلياتها .

الأسرة التي كانت تعيش ضمن العائلة الكبيرة تفرقت فما عادت المرأة العاملة لترضى أن تعيش في كنف العائلة الكبيرة وهي صاحبة المشاغل والعمل خارج البيت ، وما عاد الأبناء يغيبون شهورا ودهورا في ترحالهم طلبا لقوت العيش وللمأكل والملبس ، وشغلت الدروس والمدارس الصغار وأرغمتهم الواجبات المنزلية على معانقة المكتب الصغير أو طاولة البيت بدل حضن الجدة ، وأغوتهم بل أغرتهم اللوحة الالكترونية وجذبهم سحر الألوان والأشكال وكل ما يطلبونه تحققه وكأنها مصباح علاء الدين ، ففقد خطاب الحكاية سطوته على العائلة وراح يصارع زمنا صعبا وجيلا لا يمكنه البقاء ثابتا لساعات حول موقد لم يعد موجودا إلا في بعض البيوت الفقيرة النائية التي لم تتمكن مظاهر الحياة التكنولوجية الحديثة ووسائل الذكاء الاصطناعي أن تسهل عليهم دَرَكَ الحياة ، هذه البيوت شغلت أصحابها عن تطور الكون السريع فلا هم لحقوا به ولا هم استطاعوا العيش بمنأى عنه أو من دونه ، إنه الجفاء المجتمعي ، وبعيدا عن الجدات والأمهات في المنازل والبيوت كان هناك شكل آخر للقص وللحكاية عند القوالين و المداحين في الأسواق الشعبية والمقاهي الشعبية أو الأعراس والاحتفالات ، الظاهرة وإن لازالت حاضرة وموجودة في أسواق الحضنة الشعبية بعيدا عن أضواء المدنية إلا أنها باقية في ذاكرة من تجشموا عناء الاستيقاظ باكرا والترحال صوب الأسواق في شتى أوقات فصول السنة المختلفة حيث لم يمنعهم برد ولا ثلج ولا سوء الأحوال ، كما لم تؤثر فيهم صعوبة التنقل عبر وسيلة نقل بدائية شاحنة أو جرار أو حتى مشيا على الأقدام لمسافات طوال.

-الخلاصة :

لا يسعنا أبدا الخوض في جدلية الماضي المقدس الذي لا ينبغي المساس به، والحاضر الذي ليست له قواعد راسخة في القدم ، فنتعصب للقديم ونرفض الجديد مهما كانت إيجابياته ، ولكن بما أننا بصدد الحديث عن جملة من المعطيات الثابتة المستقرة التي تميز عددا من الأجناس الأدبية الشعبية التي تم التطرق إليها في هذه الدراسة في واحدة من مناطق الجزائر الثرية بتراث يأبى الانفصال عن حاضر يبدوا وكأنه يسارع الخطى متبعا مسارا لا مستقر له، منطقة الحضنة التي تقع في بوابة الجنوب والتي لاتزال تحافظ على تراث بكر تحمله الذاكرة الشعبية وتتفنن في روايته إذا ما سمحت الظروف لذلك .

وخطاب الشعر الشعبي ،وخطاب الحكاية الشعبية هي أجناس وأنماط تداولتها الألسن تراوحت بين الثبات والتحول ولا يمكن أبدا الجزم باختيار أو تفضيل جانب عن آخر، فبالنسبة

للثبات والاستقرار هناك عناصر لا يمكن الجدال فيها أساسا فبمجرد إحالة هذه الأجناس إلى الشعبية التي اتسمت بها طيلة هذه العصور فهي لا تتغير ولا تحول أو تزول، بل هي صفة ملازمة لها على الدوام ،سمة جعلتها في بعض الأحايين تزاوج وتمازج بين أكثر من نوع منها في الجنس الواحد ، هي عبقرية الثقافة الشعبية الحضنية مثلها مثل الكثير من المناطق غيرها إلا أن ما يميزها ويجعلها منفردة بأصنافها وأنواعها هو طبيعة المنطقة في حد ذاتها عاداتها التي تميزها تقاليدها طبيعتها الجغرافية الحضارات التي تعاقبت عليها وتركت بصمتها تأثرها وتأثيرها خاصة وأنها منطقة عبور فاعلة وفعالة تؤثر وتتأثر ،فلا تزال الحكاية مثلا مهما كان نمطها تحافظ على أركانها وعناصرها الثابتة من شخوص وزمان غابر وغائر في القدم حتى وإن لم يحدد مثله مثل الزمان، الحوار ، الصراع كلها ثوابت ، موضوعاتها تعالج القضايا الانسانية حتى وأن خالجها الخيال والتخييل وتفاعل أبطالها مع الوحوش والحيوانات والمخلوقات الغربية ، وما يجعل الشعر الشعبي يصمد ويكابر ويتحدى ويقف في وجه الزمن هو الذي يجعل من التراث عموما في هذه المنطقة ركنا من الأركان التي تقوم عليها وتستند عليها الحياة الشعبية.

المراجع

1. محمد عابد الجابري : التراث والحداثة ، المركز الثقافي ،دت ،دط، الدار البيضاء ، المغرب ،1992م،،ص14
2. طلال حرب :نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،لبنان، ط1999،1،ص15
3. بوجمعة بوبعيو وآخرون :توظيف التراث في الشعر الجزائري ،ص19
4. بشة سعيد : الهوية والأصالة في الموسيقى العربية ، مراجعة وتقديم منير سعيداني ،ط1،تونس ،منشورات كارم الشريف ،2012م،ص227.
5. حنفي حسين :التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم ،ط1،لبنان ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،1992م،ص192.
6. برهان غليون : اغتيال العقل ،موفام صاد،الجزائر ،دط، 1990م،ص19.
7. savornin .j .hydrologie du hodna .bulletin du service de la carte géologique de l Algerie.imp Adolphe Jourdan.Alger.1908.p35.
8. -Despois.-j-. la Bordure saharienne de l'Algérie orientale.in RA ;1942.P196.

9. عبد القادر لباشي : فتنة الذاكرة ،دراسة نقدية لتشكيل التراث الشعبي في الشعر الجزائري المعاصر ، نور للنشر ،دت، دب، ص196،197

10. أحمد بوزيان :قصائد للثورة وللوطن ، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينيمائي والثقافي ، الجزائر ،ط2، 2012م،ص 28

11. Meloille J Herskovits .les bases de l'anthropologie culturelle.Payot.paris.1967. p170

12. الشاعر عبد القادر العطوي :شاعر شعبي من منطقة الحضنة ،والمقطع مأخوذ من قصيدة مخطوطة للشاعر .

13. أحمد عامر أم هاني :ديوان مخطوط للشاعر ، من شعراء مدينة بوسعادة ، حفظ القرآن صغيرا ،ونظم في جميع أغراض الشعر.

14. منير البصكري : الشعر الملحون في أسفي ، منشورات مؤسسة دكالة ،الدار البيضاء ، المغرب ،ط1، 2001م،ص43.

15. مفتاح البشير: عن مخطوط للشاعر

16. الشاعر لعزاري سمير: قصيدة الحضنة ، من طرف رحاب الملحون المغاربي ، في الثلاثاء 31أكتوبر في 9.07، واطلع عليه :2021/01/16

17. ينظر: الموسوعة العالمية للشعر ، أبو ذؤيب الهذلي:أمن المنون وريبها تتوجع

18. الموقع : ويكيبيديا ،هرقليطس، اطلع عليه في :2021/01/14في الساعة15.30

19. تناح بوضياف :ديوان مخطوط للشاعر ، وهذه المقطوعة من قصيدة حفلة حمزة .

20. عبد القادر بن النوي : عن مخطوط من ديوانه أخذت هذه المقطوعة

21. ابن منظور : لسان العرب ،ط1،مج1،2003م، ص201.

22. روزلين ليلى قريش :القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي ،دط ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،1980م،ص07

23. ينظر لمرجع السابق.

24. ينظر عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة ،دراسة ميدانية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،دط،1986م

25. ينظر:عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري ،دار القصبة للنشر ، الجزائر ،دط، 2007م

26. ينظر : ثريا التيجاني :دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في منطقة الجنوب الجزائري ،وادي سوف أنموذجا ،دار هومة ، الجزائر ،دط،دت

27. ينظر: عزي بوخالفة : من قاموس العادات والتقاليد الجزائرية ،،ج2،دار سنجاق الدين للكتاب ،دت، دب

28. vladimir propp / Morphologie du conte. Leningrade.1928

29. الراوية :شبابحة فطيمة :حكاية الجود، ربة بيت تقطن ببلدية المعاضيد ، قلعة بني حماد.مقابلة خاصة جانفي 2021.

30. رواية : الجدة رزيقات عيشوش :لقرع بوكريشة من بلدية المعاضيد تقطن بولاية برج بوعريريج .

31. on trouve dans les cas cites des valeurs constantes et des valeurs variables. Se qui change.ce sont les noms-et en même temps les attributs des personnages. Ce qui ne change pas se sont leurs action .ou leur de Margue .p29. fonction. Vladimir Propp. Morphologie du conte .Suivi de les transformation des contes merveilleux. Traduction de Marguerite Derrida. Tzvetan Todorove et Claude Kahn .édition du Seuil. Paris .1965.1970. p29

32. حميد لحمداني :بنية السرد في منظور النقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ،ط1،الدار البيضاء، المغرب ،1991م،ص24

33. ينظر: ياسين نصير: الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي ، دار نينوى ، سوريا ،دط،2009م،ص24،23

34. هذه عبارة قديمة من منطقة سيدي عامر: البكرة هي أنثى الجمل في المفهوم العامي ، والعود هو الحصان ،أما البعرة فهي نواة التمر ، أو قد تكون من فضلات الغنم ، أما العود بضم العين فهو عرف الشجرة

35. محمد سعيدي :الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق ،معهد الثقافة الشعبية ،جامعة تلمسان ،ديوان المطبوعات الجامعية ،ط1998،4م، ،ص14

36. فطيمة ديلمي : الثابت والمتحول في الأمثال الشعبية الجزائرية ، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الإنسان والتاريخ ، الجزائر ، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية ، العدد 54،ص141